سياحة مباركة
في سورة الملك

الناشر: المكتب المصري الحديث

٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة - تليفون: ٣٩٣٤١٢٧

٧ شارع سوبار المنشية - الاسكندرية - تليفون: ٤٨٢٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

سياحة مباركة
في سورة الملك

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين — صلى الله عليه وسلم — وبارك على هذا النبى الأمين وعلى آله وصحابته الغر الميامين وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين .

أما بعد: فهذا كتاب أبين فيه صوراً من أهوال البعث والحشر والنشر التى تمر بها كل نفس ، والتى ذكرها الله تبارك وتعالى فى أكثر من آية فى كتابه ، وقال فى بعض تلك المواقف : « فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ماسعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » .

وقال سبحانه فى تلك المواقف « فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » .

وقال سبحانه فى موضع آخر : « بسم الله الرحمن الرحيم . سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبراً جميلا. إنهم يرون بعيداً . ونراه قريباً . يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تئويه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنها لظى . نزاعة للشوى. تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » .

ولما كان هذا اليوم عصيباً ، كما وصفه الخالق تبارك اسمه فى قوله « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد » لما كان ذلك كذلك فقد رأينا أن نقدم بين يدى الموضوع هذه الواحة الخضراء من كتاب الله عز وجل عسى أن ننال بها من نبى القرآن شفاعة حسناء فى ذلك اليوم الرهيب .

المؤلف

سورة تبارك
وفضل قرائتها

ولنبدأ بالحديث عن سورة تبارك وفضل قراءتها ، فإنها سورة تتحدث عن العقيدة وعن آيات الله فى كونه . ماذا قال عنها سيد الخلق وحبيب الحق وهى التى جمعت بين طرفى العقيدة — التوحيد — والبعث « بسم الله الرحمن الرحيم . تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير » هذا هو التوحيد الخالص فلا قدرة لأحد سواه ، ولامالك بيد غيره ، فهو سبحانه كل شئ قائم به ، وكل شئ خاشع له . قوة كل ضعيف ، ورضا كل قنوط ، ومفزع كل ملهوف ، وأمان كل خائف ، وشفاء كل سقيم ، وغنى كل فقير . من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » وهذا دليل القدرة الفائقة التى لاسلطان لأحد عليها ، ولا يد لمخلوق فيها ، ثم يقيم الدليل على وحدانيته بأنه خالق الموت والحياة ، وهل هناك على ظهر البسيطة من يحيى أو يميت سواه . اسأل العالم من أقصاه إلى أقصاه ، هل من الجبابرة أو الأكاسرة أو القياصرة أو الأباطرة أو أصحاب الصولجان من استطاع أن يدفع الموت عن نفسه « قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » فسبحان من أمره قضاء ، وحكمه ورضاه أمان ورحمة ، وكيف يجرؤ بشرئ

فيقول : أنا أحيي وأميت . إنه إن قالها فقد سفه نفسه ، وضل رشده وذلت قدمه ، وتعثر قلمه .

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » وأراد ربك أن يقيم الأدلة الواقعية على أنه الواحد الذى يحيي ويميت فأقام لنا هذا المشهد الواقعى قال سبحانه « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال اعلم أن الله على كل شئ قدير » .

وأراد الخليل إبراهيم أن يعلم النمرود بن كنعان جبار العراق كيف إحياء الموتى. قال إبراهيم لربه ربى أرنى كيف تحيي الموتى قال له ربه : أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » .

وإنما كان السؤال من الله وكانت الإجابة بإثبات الإيمان من إبراهيم حتى لا يتوهم قلب مريض أن سؤال إبراهيم كان سؤال شك بل كان سؤالا للاطمئنان كيف يكون إحياء الموتى أمام الجبابرة القساة

« قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك . لا يحيي إلا أنت . ولا يميت سواك .

ثم يؤكد الله هذه الأدلة بدليل مشاهد أمام العين نصبه الله فى الآفاق الكونية ، وفى سورة تبارك قال سبحانه : « الذى خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً لاشياطين » .

الجـــزاء يوم البعث

وينتقل بنا النظم الكريم من إثبات الوحدانية لصاحب العظمة المطلقة ، وصاحب الكمال المطلق ، إلى ساحات الجزاء يوم البعث ، فيقول سبحانه : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

قال العلماء المحققون فى تفسير هذا المشهد :

« واعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير » . أى بئس المآل والمنقلب « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً » قال ابن جرير يعنى الصياح « وهى تفور » قال الثورى تغلى بهم كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير .

وقوله تعالى : « تكاد تميز من الغيظ » أى تكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم .

« كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير » .

يذكر تعالى عدله فى خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه . وإرسال الرسول إليه ، كما قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وقال تعالى : « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » أى لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ما كنا

عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم .

قال تعالى : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو ابن مرة عن أبى البحترى الطائى قال : أخبرنى من سمعه من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « لن يهلك النـاس حتى يعذروا من أنفسهم » .

وفى حديث آخر : « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

وبعد نيران الوعيد يشرق علينا نور الوعد

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » هذا وعد من الله للذين يخافون الله وهم لم يروا ذاته ، وهذا سر عظمة المؤمنين أن يخافوا بالغيب ويؤمنوا بالغيب ، وإلا لما كان للإيمان فضل إذا كان حسياً يقع تحت حاسة البصر أو السمع أو اللمس أو الشم أو الذوق : قيل للإمام على — كرم الله وجهه — يا إمام . هل رأيت ربك قال : وكيف أعبد ما لا أرى . قالوا : فكيف رأيته قال الإمام : سبحان ربى إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأبى بكر الصديق — رضى الله عنه — يا صديق بم

عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى قالوا : فكيف عرفته . قال الصديق — العجز عن الإدراك إدراك ، والبحث فى ذات الله إشراق . ما جزاء هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب . لهم مغفرة لذنوبهم ، ومكفرة لسيئاتهم ، ولهم أجر كبير فى الآخرة .

وهل هناك أكبر أجراً من رضوان الله « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

جاء فى الصحيحين عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما يبين أجر الذين يخشون ربهم بالغيب حيث قال — صلى الله عليه وسلم — : (سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لاظل إلاظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ،ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من الدمع) .

فأنت ترى فى هؤلاء السبعة نوعين ممن يخشون الله بالغيب ، هذا الذى دعته امرأة لنفسها فما خاف إلا الله ، وهذا الذى تصدق بالمال فلم يعلن ذلك على الناس ليحمدوه ، إنما تصدق ابتغاء مرضاة من لا يغفل ولا ينام .

وينتقل بنا النظم الكريم إلى علم الله الذى لا وجود له ، وإلى سمع

الله الذى لا نهاية له فيقول سبحانه : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» .

فسبحان من علم ماكان وعلم ما يكون ، وعلم ما لايكون لو كان كيف كان يكون ، وسبحان من يسمع ويرى دبيب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وسبحان من أمره بالكاف والنون « قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى . قال فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » .وكيف يغيب عن مسمع الله أو بصره شئ وهو الذى قال : « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » وهل هناك أخفى من السر ؟

نعم إنها ذات الصدور أى النيات التى لم يتلفظ بها العبد بل عقد عليها النية وأضمرها ، وكيف لا يعلم ذات الصدور وهو الذى قال : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وكيف لا يرتبط بكل شئ علما وهو الذى جمع الكائنات كلها تحت مفاتح علمه وغيبه « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو

ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »

وكيف تخفى عليه خافية ؟ أو تغرب عن علمه شاردة . « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » .

وكيف يعلو صوت على كبريائه وعظمته وهو القاهر فوق عباده .

وكيف يستغشى جاهل أو غافل ثوبه ليستخفى منه وهو القائل « ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور »، « ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هـــو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم » نعم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

لطيف يعلم دقائق الأشياء ، وخبير يدرك حقائق الكائنات على هذا المنهج القرآنى ربى الرسول أصحابه ، رباهم على مراقبة البصر العلوى لهم فى تحركاتهم وسكناتهم .

أو ما سمعت إلى تلك الإجابة الشافية الكافية الوافية التى أجاب بها سيد الخلق وحبيب الحق عن سؤال جبريل . ما الإحسان ؟ فما ذا كان الجواب أيكون الإحسان صدقة ؟ أيكون إتقان الشئ ؟ أيكون إخلاص العمل ؟ لقد كانت إجابة الرسول — صلى الله عليه وسلم —

عن الإحسان أرحب أفقاً وأوسع دائرة وأصلب عوداً . لقد بين أن للإحسان مقامين أحدهما مقام المشاهدة والآخر مقام المراقبة . فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولذا قال أحد الناس لسفيان الثورى — رضى الله عنه — دلنى على نصيحة إن عملت بها لا أجترئ على معصية الله . فقال سفيان : تذكر خمسة أشياء :

١ — أيليق بك أن تعصى الله وهو يرزقك .

٢ — أتظن أنك تعصى الله وهو لا يراك .

٣ — أتستطيع أن تعصى الله خارج ملكه .

٤ — أتستطيع إن أتاك الموت أن تطلب تأجيله .

٥ — أتقدر يوم القيامة إذا ذهب بك إلى النار أن تدفع العذاب عنك ؟

قال : لا أستطيع شيئاً من ذلك .

قال سفيان : فكيف تجترئ بالمعصية على من رزقك ورآك وأنت فى ملكه ، وكتب عليك الموت ولا تستطيع أن تدفع عذابه عنك . قال الرجل : والله لا أعصيه ما دمت حياً .

وهل كان الحوار الذى دار بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبين بائعة اللبن حينما قال لها : يا عجوز ألم أنهك عن غش اللبن بالماء .

قالت والله ما غششته يا أمير المؤمنين وإذا بصوت ينطلق من داخل

كوخ متواضع يقول : يا أماه أتحنثين فى اليمين وتغشين المسلمين وتكذبين على أمير المؤمنين .

وينتفض عمر لنداء القلوب التى عرفت فخافت وخشيت ، ويسأل العجوز من هذه التى تتكلم ؟ وتقول العجوز : إنها ابنتى والله يا أمير المؤمنين : لقد سألتنى وأنا أغش اللبن. ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ قلت لها : وهل يرانا أمير المؤمنين ؟ قالت : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن رب أمير المؤمنين يرانا .

فماذا صنع أمير المؤمنين مع تلك الفتاة ؟ قدم لها أعظم مكافأة . زوجها لابنه عاصم الذى أنجب منها فتاة اسمها ليلى وتزوجت ليلى بنت عاصم بعبد العزيز بن مروان فأنجبت منه خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز « أمه بنت بنت بائعة اللبن . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » وكفى بهذا درساً فى التربية إنه درس الرقابة وخشية الله فى السر والعلن والإخلاص له على كل حال ، والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الغضب والرضا .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى الامتنان الإلهى فيقول سبحانه :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

ويواصل النظم الكريم مسيرته المباركة فيذكر نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده ألا وهى تذليل الأرض وتمهيدها وتسخيرها

وإصلاحها للعباد « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب » .

ويقول جل شأنه : « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » .

وقال سبحانه : « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وقال عز من قائل : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » .

وقال تبارك اسمه : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » .

وقال عز وجل : « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان

مشتبهاً وغير متشابه أنظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

إلهى لا يسعنا إلا أن نثنى عليك بما أنت أهله ، فلك الشكر على ما أوليت ولك الثناء الجميل ، وكيف يستطيع لسان أن يؤدى شكرك وأنت الذى قلت وقولك الحق فى سورة النمل ، وهى سورة النحل : « بسم الله الرحمن الرحيم . أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون . خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه

لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » .

أخا الإسلام قف عند هذه المشاهد الكريمة التى تفيض فيها يد الرحمن جوداً وكرماً وسخاءاً ونعماً .

تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

كيف يستطيع العبد أن يؤدى شكر نعمتك ولك فى كل نفس يتردد فى صدره نعمة وآلاء وفضل .

إلهى أستحيى أن أسألك وأنا أنا ، ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت.

أستحيى أن أسألك وأنا العبد الخطاء ، ولكن كيف لا أسألك وأنت الإله الكريم المعطاء .

إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لاحد له ولا نهاية .

حاسبت نفسى لم أجد لى صالحاً
إلا رجـــائى رحمـــة الرحمن
ووزنت أعمالى على فلم أجد
فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى شئونى كلها
ويحى إذن من وقفة الديان
يا أيها الإخوان إنى زائـــل
مهما يطل عمـــرى فإنى فـــان
يارب إن لم ترض إلا ذا تقى
من للمسئ المذنب الحـــيران
نوح الحمام على الغصون شجانى
ورأى الغزول صبابتى فبكانى
إن الحمام ينوح من ألم النـــوى
وأنا أنوح مخـــافة الديـــان
يا واحـــداً فى ملكه ماله ثانى
يا من إذا قلت يامولاى لبانى
أنسى فتذكرنى فى كل نائبة
فكيف أنساك يا من لست تنسانى

أنا إن بكيت فلن ألام على البكا
فلطالما استغرقت فى العصيان
يارب عبدك من عذابك مشفق
بك مستجير من لظى النـــيران
فارحم تضرعه إليك وحـــزنه
وامنن عليه اليوم بالغفـــران

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

ومناكب الأرض جهاتها وجوانبها المختلفة . وفى التعبير بالمشى ما يفيد عدم الاندفاع وراءها فإن من سكر بحب الدنيا كان أشد ممن سكر بالشراب ، فإن من سكر بالشراب قد يفيق بعد ساعات أما من سكر بحب الدنيا فلن يفيق إلا عندما يصطدم رأسه بجدار القبر بين معسكر الموتى حيث تذهب السكرة ، وتحل الفكرة ، فإن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ما انتبهوا ندموا ، فإذا ندموا لا ينفع الندم .

غداً توفى النفـــوس ما كسبت
ويحصـــد الزارعون ما زرعوا
إن أحســـنوا أحسنوا لأنفسهم
وإن أساءوا فبئس ما صـــنعوا

سبحانك يا صاحب الحكمة البالغة ، يا من أمرت بالمشى فى الدنيا وأمرت بالسبق والاستباق والإسراع إلى الدار الآخرة . ألست أنت

القائل وقولك الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين » .

ألست أنت القائل : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » بعد قولك : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

سبحانك أنت القائل : « فاستبقوا الخيرات » .

وأنت القائل : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

هذا إذا كان الحديث حديث الآخرة: مسارعة ومسابقة واستباق وتنافس.

أما إذا كان الحديث حديث الدنيا : فانتشار ومشى « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

وإلقاء باللائمة على الذين يؤثرون العاجلة على الباقية « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » .

ثم ماذا بعد المشى فى مناكبها ؟

أيتمرغ ابن آدم فى طينها ويتقلب فى حمئها المسنون ؟ لا « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » إن هناك إشارة تنبيهية يقول فيها مولانا جل ذكره « وإليه النشور » .

والنشور هو البعث والإحياء بعد الموت والخروج من القبور ، وهذا دليل قاطع على أن الحياة لا يمكن أن تدوم لأحد . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء .

وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء .

وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالحياة ألم يخفيه أمل . وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يجزى كل امرئ بما فعل .

هى الدار والأنفاس إلا نهائب
لديها وما الأجسام إلا عقـــائر
إذا أحسنت يوماً أساءت ضحى غداً
فإحسانها سيف على الناس باتر
ترب الفتى حتى إذا تم أمره
دهته كمـــا رب البهيمـــة جازر

كثـــيرة ألوان الوداد مليـــة
بأن يتوقاها القرين المعـــاشر
فإن تكن الأيام فرقن بيننـــا
فكل امرئ يوماً إلى الله صائر

« أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير. ولقد كذب الذين قبلهم من فكيف كان نكير » .

وبعد ما بين العلى الحكيم آلاءه العظمى ونعمه التى لا تحصى ، حيث جعل الأرض ذلولا كالدابة المذللة لراكبها ، وأعطانا من القوى ما نستطيع أن نمشى عليها ، ونطرق مجالاتها ومناكبها ونستعمرها وننقب فى بطنها ونستخرج منها من المعادن والسائل الذهبى الأسود ، والطاقات التى لا تعد ولا تحصى ، ونلتمس الرزق فى خباياها . إذا به سبحانه وتعالى يذكر هذه الآيات على سبيل الوعيد ، فما السر فى أن يقرن آية الأرض بآيات الوعيد نعم . إن السر رهيب إذا عرف ، وخطير إذا وقفنا عند حقيقته ، فالآية السابقة تستدعى الشكر للمنعم جل جلاله ، فإذا ما جحدنا شكره وأنكرنا فضله فما جزاء الجحود ، خسف وتدمير ورجم بالحصباء وعذاب شديد « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

وقال موسى : « إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن

الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ومالنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد . واستفتحوا وخاب كل جبار . عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ . مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد . ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز . وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون

عنا من عذاب الله من شئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم . وأدخل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام » .

ايها القارىء الكريم :

بعد أن تقرأ هذه الآيات تجد فيها تاريخاً عميق الجذور لأمم كانت عاتية ولربها عاصية ملكت الأرض فلم تحسن قيادتها ، بل ظلمت وتجبرت « وقالوا من أشد منا قوة » ونسوا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآيات الله يجحدون ، وعن آلائه يعرضون واستهزءوا بالرسل وأنكروا الرسالات ، بل وهددوهم بالنفى إلا أن يكفروا مثلهم ، وهنا حق الوعيد (إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) اقرءوا إن شئتم « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم » .

خسف الأرض آية من آيات الله

إنى وأنا أخط سطور هذه الآيات اطلعت على بحث نشرته إحدى المجلات المصرية عن الزلازل ، ولما كان هذا بحثاً علمياً يتعلق بخسف الأرض فإذا هى تمور وتدور وتضطرب ، رأيت من باب التتمة للفائدة أن أنقل هذا البحث فى هذا الموطن ليقول العلم كلمته :

يقول كاتب البحث : « لقد كان سكان إقليم بريتزا بجنوب إيطاليا متجمعين حول الموائد لتناول وجبة العشاء الخفيفة التى يتناولونها عادة فى الساعة السابعة ، فى نفس الوقت الذى ينتبهون فيه جيداً لمتابعة أهم أحداث العالم التى ينقلها التليفزيون فى أهم نشراته الإخبارية ، وإذا بهم يتحولون إلى أهم حدث يتطلع إليه سكان العالم بالأسف والأسى ، ففى تمام الساعة السابعة و ٣٦ دقيقة تحولت ١٥٠ مدينة وقرية فى الجنوب الإيطالى إلى مايشبه الأطلال ، وبالرغم من أن مجموع الذين اشتركوا فى عمليات الإنقاذ بلغ سبعة عشر ألف وخمسمائة رجل ، بغض النظر عن حالة الفوضى التى سادت عمليات الإنقاذ ، فإن ذلك لم يحل دون وقوع عدد كبير من الضحايا .

وتشير التقارير النهائية إلى أن عدد القتلى سوف يصل إلى ثلاثة آلاف وحوالى ألفى مفقود وثمانية آلاف جريح . أما المشكلة الكبرى فهى تشرد حوالى ربع مليون إنسان ، ولم تكف المدارس والمنازل

والأكواخ الصيفية وعربات السكك الحديدية فى توفير المأوى للآلاف المشردة .

وتكتمل فصول المأساة عندما يخرج الناجون من بين الأنقاض ليفاجأوا بهبوب الرياح الباردة ، وهطول الأمطار الغزيرة ، والانخفاض الشديد فى درجة الحرارة إلى حد التجمد ، مما عاق وصول النجدة بسرعة إلى القرى المنكوبة ، كأنه لم تكف كارثة واحدة كى يحذر المؤرخون من كارثة جديدة وشيكة الوقوع ، فلقد أعلنوا أن الزلزال الذى دمر الجنوب الإيطالى ما هو إلا مقدمة لثورة غاضبة لبركان فيزوف الشهير الذى سبق أن دمر مدينة بومبى بأكملها . فقبل ثورة هذا البركان فى عام ١٩٧٩ ميلادية بثمانية عشر عاماً حدثت هزة أرضية فى المنطقة .

أما مدينة الأصنام (بالجزائر) — أوليانز فيل سابقاً — فلقد بدت بعد ثلاثين ثانية من الاهتزازات العنيفة كما لو كانت مدينة من الكرتون اجتاحها بلدوزر عملاق ، ولقد وقعت الكارثة بالمدينة وقت صلاة الجمعة فاهتزت الأرض تحت أقدام المصلين وانهار السقف فوق رءوسهم وأيضاً الجدران فمات عشرون شخصاً وجرح المئات .

وصف الحادث أحد رجال الإنقاذ الذى وصل إلى المدينة بعد الساعات الأولى من وقوع الزلزال قائلا : إن الزلزال لم يترك بالمدينة حجراً على حجر » .

ولقد بلغ عدد الضحايا حوالى عشرة آلاف قتيل و٤٤ ألف جريح بالإضافة إلى تشريد ٤٠٠ ألف من سكان المدينة والمناطق المجاورة. وأيضاً دمر الزلزال حوالى ٨٠٪ من مبانى ومنشآت المدينة.

ووصف شهود العيان لحظة وقوع الزلزال قائلين: إن شرفات المنازل قد تطايرت فى الهواء كعلب الكرتون. كما ظلت أنات وحشرجات المحشورين بين الأنقاض تسمع لعدة أيام بعد وقوع الزلزال، مما اضطر رجال الإنقاذ إلى بتر أطراف بعض المحشورين فى محاولة أخيرة لإنقاذهم.

قدر أحد العلماء الجيولوجيين قوة الهزة الثانية التى تعرضت لها مدينة الأصنام بما يعادل انفجار مليارى طن من مادة ت ن ت شديدة الانفجار، وهذه ليست الكارثة أو الزلزال الأول الذى تتعرض له مدينة الأصنام، فقد سبق أن تعرضت لزلزال مماثل عام ١٩٥٤ وراح ضحيته ١٥٠٠ شخص من سكان المدينة الذين كان عددهم آنذاك ٣٠ ألف نسمة (كان قبل الزلزال الأخير ١٢٠ ألف نسمة).

اذن فما هو الزلزال:

ويستطرد كاتب هذا البحث فيطرح بهذا السؤال ثم يجيب قائلا: الزلزال هو عبارة عن اهتزازات خاطفة سريعة تنتاب الأرض من حين لآخر وتترك وراءها فى معظم الأحيان شقوقا وتصدعات كبيرة تحدث فى قشرة الأرض، وتغير معالمها الجغرافية والعمرانية تغييرا

ملحوظا ، وقد يحدث مع وقوع الزلازل انهيار للجبال وهياج لأمواج البحار والمحيطات والأنهار بالإضافة إلى دمار واسع للمنشآت وضياع الكثير من الأرواح .

ونحن نضيف هنا قوله تعالى « تدمر كل شيء بأمر ربها » ويضيف كاتب المقال قائلا :

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومى أستاذ الجيوفيزياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة : إن هناك نوعين من الأسباب التى تؤدى إلى حدوث الزلزال ، فهناك الزلازل البركانية التى تنتج عن نشاط بركانى ، وقد تسبق ثورة البركان أو تعقبها، وكانت هذه هى النظرية السائدة فى الماضى وأرجع العلماء إليها سبب حدوث الزلازل حتى وقعت زلازل فى مناطق ليست بها براكين، هنا اتجه العلماء للبحث عن سبب آخر لحدوث الزلازل وهى الزلازل الحركية . أى التى تحدث نتيجة حركة صخور القشرة الأرضية وهذه هى أكثر أنواع الزلازل حدوثا وأكثرها تأثيرا على حياة الناس والمنشآت .

والزلازل الحركية تحدث نتيجة كسر فى صخور القشرة الأرضية، وعند حدوث الكسر تتحرك الصخور بالنسبة لبعضها البعض . ومن هنا نشعر بهذه الحركة . وقد توصل العالم الجيولوجى الشهير (ريدا) فى عام ١٩٠٦ إلى أن هذه الكسور تحدث نتيجة لضغوط تتعرض لها القشرة الأرضية سواء من باطن الأرض أو من خارجها ، وعند

تعرض الصخور لهذه الضغوط الهائلة تصبح فى حالة إجهاد ، وتظل على ذلك إلى أن يبلغ الضغط درجة لا يتحملها الصخر ، ويختزن الصخر تلك الضغوط بداخله عبر ملايين السنين ، وينتشر ذلك الضغط المختزن إلى الصخور وطبقات القشرة الأرضية المجاورة ، وعند نقطة الذروة لا يستطيع الصخر اختزان مزيد من الطاقة فيتصدع . وتنطلق الطاقة المختزنة على هيئة موجات تسبب اهتزازا لسطح الأرض تتناسب قوته مع مقدار الطاقة المختزنة .

وهناك عدة عوامل تساعد على تولد تلك الطاقة التى تختزنها الصخور ثم ينتج عنها الزلزال . من بينها الحركة الدائمة للكرة الأرضية والمواد الاشعاعية التى تصل إليها أو تصدر منها . وأيضاً قوى التنافر والتجاذب بين الكواكب وكوكب الأرض . وكذلك انصهار أجزاء معينة داخل القشرة الأرضية مما يؤدى إلى حدوث اختلال الخواص الطبيعية للصخور. فالصخر الذى يتعرض للحرارة فى باطن الأرض يكون وزنه أو كثافته أقل من ذلك الذى لا يتعرض للحرارة فوق سطح الأرض .

وعندما تكون هناك مناطق جبلية تجاورها سهول منبسطة يحدث انتقال للضغط من المناطق المرتفعة إلى المناطق السهلة مما يسبب الزلازل والهزات الأرضية، فعادة ما تحدث الزلازل فى المناطق السهلة التى تحيطها سلاسل جبلية عظيمة مثل جبال الهيمالايا وسلسلة الجبال فى غرب أمريكا وجبال أطلس فى المغرب العربى .

وتتركز أحزمة الزلازل فى المناطق المتباينة الارتفاع وقد وجد العلماء أن هناك ثلاثة أحزمة رئيسية للزلازل تحيط بالكرة الأرضية :

١ — الحزام الزلزالى الأول : يطوق المحيط الهادى . ويمتد من شيلى وبيرو فى أمريكا الوسطى فالمكسيك فكاليفورنيا فكندا ثم جزر اليابان فأندونيسيا فالفلبين . وهذه المناطق تتركز فيها سلاسل جبلية عظيمة وتجاورها مناطق سهلة قليلة الارتفاع .

٢ — الحزام الزلزالى الثانى: يمر بشمال أفريقيا وينحرف لحسن الحظ عند منتصف ليبيا ثم يمر بأسبانيا فإيطاليا فاليونان فتركيا فإيران ثم شمال الهند وبورما والصين .

٣ — الحزام الزلزالى الثالث : يمر بمناطق متفرقة فى المحيط المتجمد الشمالى وسيبريا ووسط وشرق أفريقيا، ويمس مصر فى طرفها الجنوبى الشرقى ولكنه لا يمثل خطرا كبيرا لقلة ارتفاع جبال تلك المنطقة .

وهناك نظرية علمية تقول : إنه حيث تلتقى القارات وتتصادم تكثر الزلازل، ومن المعروف أن قارات الأرض فى حالة حركة نسبية وبطيئة وتحسب بملايين السنين .

وعند مدينة الأصنام تتصادم كتلة القارة الإفريقية مع كتلة القارتين الأوربية الآسيوية فتتجه القارة الإفريقية غربا بينما تتجه كتلة القارتين الأورو آسيوية نحو الشرق، حينئذ تحدث بعض الاضطرابات الجيولوجية

التى أدت إلى حدوث ثمانى هزات أرضية شهيرة فى منطقة البحر المتوسط منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن .

هل يمكن التنبؤ بالزلازل ؟

هذا السؤال يشغل بال الكثير من العلماء المتخصصين فى ذلك المجال وأيضاً البشر الذين يقطنون المناطق التى يكثر وقوع الزلازل بها . ويقول دكتور عبد الرحيم بيومى إنه من رابع المستحيلات التنبؤ بمكان وزمان وقوع الزلزال .

فنحن لا نعرف أين ستختزن الطاقة التى ستسبب الزلزال ، ثم أين سينكسر الصخر الذى يختزن تلك الطاقة ، وبالتالى لا يمكن تحديد مكان وزمان وقوع الزلزال . إلا أنه يمكن القول بأن هناك مناطق تحيطها أحزمة زلزالية معروفة حددها العلماء ، والمناطق التى وقعت بها زلازل هى أكثر عرضة لوقوع مزيد من الزلازل .

وهناك محاولات لعلماء الصين واليابان والولايات المتحدة للتنبؤ بوقوع الزلازل ، فهم يلاحظون أن الثعابين تخرج من الشقوق والجبال قبل وقوع الزلزال ، كما تصدر عن القطط والخيول أصوات معينة تدل على الفزع والخوف ، ويحدث ميل بسيط فى سطح الأرض كما يتغير المنسوب الطبيعى للمياه الجوفية .

وقد حدث عام ١٩٦٤ وبعد هزة أرضية اجتاحت مدينة بكين، أن خرج متحدثا أكاديمياً يقول : إن الصين لن تشهد زلازل خلال السنوات الخمس أو الأربع القادمة على الأقل ، ولم يكد يمر يوم واحد حتى وقع زلزال عنيف اجتاح مدينة بكين !! ففقد الناس الثقة فى إمكانية التنبؤ بالزلازل حتى لو كان علميا ! وما تم التوصل إليه من من أجهزة حتى الآن .

ترصد الزلازل بعد وأثناء حدوثها فقط ، وليس قبل ذلك وكل الدلائل التى يتم تجميعها قبل حدوث الزلزال سواء كانت طبيعية أو بأجهزة علمية ، لا تعطى فترة كافية للاستعداد لتجنب الزلزال .

وقد نشأ فى الفترة الأخيرة علم حديث عن الزلازل وعلاقتها بالمنشآت فى أمريكا واليابان والصين ، وأصبحوا يبنون المنشآت ذات القيمة الاقتصادية والاستراتيجية بطريقة تقلل من الدمار الناتج عن حدوث الزلزال، وأفضل مثل لذلك هو الكوبرى المعلق الذى يمر عبر خليج مدينة سان فرانسيسكو الأميريكية لمسافة ١٥ ميلا، فقد تم تصميمه بطريقة هندسية تساعد على امتصاص الهزات الناتجة عن الزلزال . ولقد زار دكتور بيومى تلك المدينة منذ عشرين عاما، وقد حدث زلزال فى ذلك الوقت وتأرجح الكوبرى يميناً ويساراً ولم يتحطم رغم أن طوله حوالى ٢٢ كم، ويساعد ذلك العلم الجديد على ابتكار أنواع معينة

من حديد التسليح والأسمنت ومواد البناء، وأيضاً يتم تصميم المبانى بطريقة هندسية تجعلها تمتص الزلازل ولا تسقط .

هناك عدة مقاييس لتقدير الزلازل ، وإن كان مقياس ريشتر هو أشهرها . فقد توصل العلامة مارسيلى إلى قياس قوة الزلزال بعدد الضحايا الذين يروحون ضحيته . أى أنه لو مات عشرة أشخاص نقول إن هذا الزلزال قوته درجة واحدة ؛ ولو مات عشرون تصبح قوته درجتين ، وهلم جرا . وهناك طريقة أخرى كان يجرى قياس الزلازل بواسطتها ، وفيها يتم تقدير قوة الزلزال بعدد المنشآت والمبانى التى يهدمها . فلو انهدمت خمسة منازل تصبح قوة الزلزال درجة واحدة ، وهكذا يتم التقدير .

ثم جاء ريشتر العالم الجيولوجى الألمانى المولد ، الأمريكى الجنسية ، ووضع مقياسا جديدا لقوة الزلزال نسب إليه . وقد توفى بعد أن خلف مدرسة عظيمة فى ذلك المضمار .

وفى مقياس ريشتر يتم تفسير قوة الطاقة الناتجة عن الزلزال إلى درجات، وكل درجة تعادل مائة « أرج » وهى وحدة لقياس الطاقة الناتجة عن الزلزال . ومقياس ريشتر مقسم إلى ١٢ درجة . وهناك علاقة بين تقدير قوة الزلزال وبين الدمار الذى يخلفه، فإذا قلنا إن ذلك الزلزال قوة درجة واحدة على مقياس ريشتر ، فمعنى هذا أن قوة الزلزال ضعيفة لا ينتج عنها أى دمار ولا يشعر به الإنسان ولا تسجله المراصد . أى أن

الطاقة التى خرجت من الصخور وقت وقوع الزلزال ضئيلة جدا ولم تسبب أى اهتزاز للصخور والمنشآت والأرواح .

لقد كان زلزال شان تسى الذى وقع فى الصين عام ١٥٥٦ هو أخطر الزلازل التى عرفتها البشرية ، فقد راح ضحيته ما يزيد على ٨٣٠ ألف شخص . بل إن العلماء يرجحون أن يكون ذلك الزلزال هو أسوأ كارثة طبيعية فى تاريخ البشرية . وغالبا ما تكون زلازل الصين ذات عدد ضخم من الضحايا نظرا للكثافة السكانية بها (حوالى ألف مليون نسمة) كما شهدت الصين بعد ذلك فى عام ١٩٦٦ فى مدينة هيسنج تاى ومدينة هايشنج عام ١٩٧٥ ثم فى مدينة تانج شان عام ١٩٧٦ زلازل رهيبة ، ففى الزلزال الأخير فقط فقد ٦٥٠ ألف نسمة أرواحهم طبقا لإحصائية الأمم المتحدة .

وفى عام ١٧٥٥ اجتاح مدينة لشبونة زلزال عنيف دمر وقتل ٦٠ ألف شخص . واجتاحتها أمواج عاتية من المحيط الأطلسى ،وفى عام ١٩٢٣ وقع زلزال عنيف آخر دمر مدينة طوكيو اليابانية وقتل ٧٠ ألف نسمة ، وقد مات أغلبهم نتيجة الحرائق التى اشتعلت فى المدينة بعد وقوع الزلزال ، كما حدث زلزال عام ١٩٢٠ فى مدينة كانسو الصينية راح ضحيته ما يزيد على مائتى ألف شخص .

وتتركز الزلازل العنيفة فى المنطقة العربية فى بلاد المغرب العربى حيث سلسلة جبال أطلس العالية ،وقد تعرضت مدينة طرابلس الليبية لزلزال عنيف كما تعرضت لهزة أرضية راح ضحيتها حوالى ٢٠ ألف

نسمة . كما وقع زلزال عام ١٩٦٣ فى منطقة الجبل الأخضر راح ضحيته ثلاثمائة قتيل وآلاف الجرحى . وتهدم ١٥ ألف منزل، ووقع زلزال آخر فى مدينة أغادير المغربية راح ضحيته أكثر من ١٠ آلاف نسمة فى منتصف الستينات .

وقد أطلق عدد من علماء أمريكا واليابان والصين أخيراً نظرية جديدة تقول إن أحزمة الزلازل يمكن أن تهاجر إلى مناطق أخرى غير المناطق المعروفة حاليا .

ويرد دكتور عبد الرحيم بيومى قائلا : إذا اعتبرنا أن السلاسل الجبلية تقع فى نطاق أحزمة الزلازل فى العالم باعتبارها أسباب حدوث الزلازل كما أوضحنا ، فإن مصر ليست بها مثل هذه السلاسل الجبلية الشاهقة التى تؤدى إلى حدوث الزلازل ، لذا فإنه لم يثبت علميا حتى الآن أن مصر يمكن أن تتعرض لزلازل عنيفة فى المستقبل القريب . وذلك ما لم تظهر أدلة علمية أخرى تثبت عكس ما هو قائم . كما أن الزلازل التى تعرضت لها القاهرة والإسكندرية والزقازيق والمنوفية كانت زلازل ضعيفة لم تترك أى دمار خطير ، ولم تزد قوة أى زلزال فى مصر على أربع درجات على مقياس لايشتر .

مسألة فى العقيدة :

وبعد هذا الطواف فى مناكب الأرض وبيان انتقام الله تعالى وآياته وعيده وما يجرى على أهل الأرض من زلازل وخسوف ومسخ ،

لابد لنا من وقفة هنا تتعلق بقوله تعالى « أأمنتم من فى السماء » كيف نفهم هذه الآية وأخواتها مثل قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (يد الله فوق أيديهم) . (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) . (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » .

كيف نفهم هذه النصوص وأمثالها ونقول وبالله التوفيق : إن الراسخين فى العلم يقفون من هذه الآيات موقف الإيمان المحض قائلين « وما يعلم تأويله إلا الله » قائلين « آمنا به كل من عند ربنا » إذ أن هذه الآيات جميعها راجعة إلى أصلها المحكم فى قوله تعالى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » وفى سورة الإخلاص « بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ».

وما فتح على المسلمين أبواب الخلاف والفرقة إلا اختلافهم فى عقائد كانت أولى ما تكون بالتسليم لله دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل، فعلى المؤمن إذا قرأ مثل هذه الآيات أن يقول : « آمنا به كل من عند ربنا » فالقاعدة الأصيلة فى هذه العقائد أن الله تبارك اسمه لا يحويه مكان لأنه خالق المكان، ولا يسأل عنه بمتى كان، لأنه لا يجرى عليه زمان « بسم الله الرحمن الرحيم . سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وبكل

شيء عليم » هو الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر ، فالله جل جلاله مخالف للحوادث ، ليس بجسم ولا صورة ولا معدود ولا محدود ولا متبعض ولا متجزىء ولا متناه، لا يسأل عنه بما، لأنه لا يعرف حقيقة الله إلا الله، ولا يسأل عنه بمتى كان ، لأنه خالق الزمان فهو سبحانه ليس كمثله شيء وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك. ويرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما جاءه رجل اسمه صبيغ يسأله عن قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فعلاه عمر بجريدة كانت معه يضربه على رأسه كأنه يحذر تحذيرا بالغ المدى من الخوض فى هاتيك البحار التى لا ساحل لها لمن لم يحسن العوم فيها، ويستعصى عليه أن يمخر عبابها ، كيف ومحيطها أعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر . ولقد كانت وسيلة الإيضاح واضحة وبليغة فإن الرجل بعدما ضرب على رأسه قال: والله لقد كان فى رأسى وساوس وأوهام ما أن رفع أمير المؤمنين جريدته عن رأسى حتى شعرت كأنها زالت . ولعل سائلا يقول وهل هذه تعتبر إجابة، ونحن نقول وهل خوض المرء فى ما لا يعنيه يحتاج إلى إجابة، ولو ظل المرء طول حياته يسأل كيف استوى الرحمن على العرش هل فهم حقيقة العرش وهل أحاط بذات الرحمن علما، وهل أدرك معنى الاستواء . إن عمر كان بعيد النظر ثاقب الفكر عميق الفهم علوى التفكير. إذ أدرك أن وراء هذا السؤال باباً .. وراءه من الفتن

ما يصرف الأمة عن طريقها وسبيلها المرسوم لها .إنها أمة دعوة وجهاد تتلقى أحكامها من الوحي المعصوم .

يرحم الله أبا بكر الصديق عندما سئل : يا أبا بكر بم عرفت ربك فقال : عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي.قالوا فكيف عرفته قال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك . ويرحم الله الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قيل له يا إمام هل رأيت ربك ؟

قال وكيف أعبد ما لا أرى . قالوا فكيف رأيته ؟ قال رضي الله عنه إذا كانت العيون لا تراه بمشـــاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

ويرحم الله رابعة رضي الله عنها قيل لها ما الدليل على وجود الله قالت ومتى غاب سبحانه ؟ آمن به المؤمن ولم ير ذاته وجحده الجاحد ووجوده في ملك الله دليل على وجود الله ، وما أجل ما أجاب به الإمام مالك ابن أنس إمام دار الهجرة عندما قال له قائل ما معنى الرحمن على العرش استوى ؟ فقال رضي الله عنه : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة ،والإيمان به واجب ، ومن الله الرسالة ،وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . نعم : كلمات من نور على صفحات من ذهب .

وينظر الإمام مالك إلى صاحب هذا السؤال فيقول له ، وما أراك إلا رجل سوء، اعلم يا أخي أن مسائل العقيدة أحد من السيف وأدق من الشعرة لذلك يجب العلم بها ويحظر الخلاف عليها، اعلم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وليس له كفوا أحد فإياك أن تتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ الآيات السابقة الذكر أن الله تعالى له جارحة وأصبع تماثل أو تشابه من بعيد أو قريب الحوادث إنما القول الحق أن تؤمن بما قاله الله، وتقول فيها ما قاله الإمام مالك في قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » قل مثل ذلك في قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » وفي قوله تعالى « ويبقى وجه ربك » فاليد والوجه معلومان والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب . إنك إن فعلت ذلك فقد سلمت من الذلل ولقيت الله بقلب سليم ويكون جزاؤك عند الله الفلاح ، لأنك آمنت وصدقت وأذعنت وأيقنت وفوضت وسلمت واعتقدت فحكم الله لك بالفلاح .

حقيقة الإيمان

« بسم الله الرحمن الرحيم . قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

وإليك ما ذكره العلامة ابن كثير فى تفسير هذا المشهد القرآنى المهيب والذى قصدنا بذكره ها هنا أن نبين حقيقة الإيمان ، وسلوك المؤمنين الذين زكى الله قلوبهم . فقال : « قد أفلح المؤمنون » وزكى عبادتهم فقال «الذين هم فى صلاتهم خاشعون» وزكى ألسنتهم فقال «والذين هم عن اللغو معرضون» وزكى أموالهم فقال « والذين هم للزكاة فاعلون » وزكى أعراضهم فقال «والذين هم لفروجهم حافظون » وزكى معاملاتهم فقال « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » وجمع لصلاتهم الخشوع فيها والمحافظة عليها فقال « والذين هم على صلواتهم يحافظون » ، وحكم لهم بالعاقبة الحسنى فقال : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

إليك ما ذكره ابن كثير فى تفسير هذه الآيات :

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنى يونس بن سليم قال أملى على يونس بن يزيد الأيلى عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وارضنا — ثم قال — لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : « قد أفلح المؤمنون » حتى ختم العشر ورواه الترمذى فى تفسيره والنسائى فى الصلاة من حديث عبد الرزاق به .

وعن أبى عمران عن يزيد بن باب نوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فقرأت « قد أفلح المؤمنون — حتى انتهت إلى — والذين هم على صلواتهم يحافظون » قالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها تكلمى فقالت « قد أفلح المؤمنون » .

قال كعب الأحبار : لما أعد لهم من الكرامة فيها وعن أبى ندرة

عن أبي سعيد قال : خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تكلمي فقالت : «قد أفلح المؤمنون» فدخلتها الملائكة فقالت طوبى لك منزل الملوك .

وعن أبي عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم قال لها تكلمي فقالت : قد أفلح المؤمنون » .

وقال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب ابن الحارث حدثنا حماد بن عيسى الجهني عن إسماعيل السدي عن أبي صالح عن ابن عباس يرفعه . لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقالت قد أفلح المؤمنون قال « وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا البزار حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا يعيش بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجد خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي قالت « قد أفلح المؤمنون » فقال الله وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وقوله تعالى « قد أفلح المؤمنون » أى قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس « خاشعون »: خائفون ساكنون .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه : الخشوع خشوع القلب .

وقال الحسن البصرى : كان خشوعهم فى قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح .

وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة فلما نزلت هذه الآية « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون » خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم .

قال محمد بن سيرين : وكانوا يقولون لا يجاوز بصره مصلاه ، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض .

وعن عطاء بن أبى رباح مرسلا . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية .

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها وحينئذ تكون راحة له وقرة عين . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم .

وروى الإمام أحمد حدثنا وكيع عن رجل من أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يا بلال أرحنا بالصلاة » .

وقال الإمام أحمد أيضاً عن عثمان بن المغيرة عن سالم ابن أبي الجعد أن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة فقال « ياجارية أتيني بوضوء لعلي أصلي فأستريح ، فرآنا أنكرنا عليه ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة » .

وقوله تعالى « والذين هم عن اللغو معرضون » أي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم ، والمعاصي كما قاله آخرون. وما لا فائدة فيه من الأفعال والأقوال كما قال تعالى « وإذا مروا باللغو مروا كراما ».

قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك ، وقوله تعالى « والذين هم للزكاة فاعلون » .

الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة . قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية . « وآتوا حقه يوم حصاده » .

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا زكاة النفس من الشرك

والدنس كقوله « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وكقوله : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » على أحد القولين فى تفسيرهما وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً : وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس .

والمؤمن الكامل هو الذى يفعل هذا وهذا والله أعلم ، وقوله تعالى « والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

أى والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط لا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال « فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك » أى غير الأزواج والإماء « فأولئك هم العادون » أى المعتدون .

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الأعلى حدثنا سعيد عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت تأولت آية من كتاب الله أو ما ملكت أيمانهم، فأتى بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقال له ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها . قال فضرب العبد وجز رأسه، وقال أنت بعده حرام على كل مسلم . وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم .

تحريم الاستمناء

وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة « والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال الله تعالى « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال حدثني : علي بن ثابت الجزري عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه : الناكح يده والفاعل والمفعول به ومدمن الخمر والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره » .

وقوله تعالى « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك. لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » وقوله تعالى « والذين هم على صلواتهم يحافظون » أي يواظبون عليها في مواقيتها . كما قال ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال :

« الصلاة على وقتها قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين . قلت ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله أخرجاه فى الصحيحين وفى مستدرك الحاكم قال الصلاة فى أول وقتها .

وقال ابن مسعود ومسروق فى قوله تعالى « والذين هم على صلواتهم يحافظون » يعنى مواقيت الصلاة .

وقال قتادة على مواقيتها وركوعها وسجودها .

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن .

ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن » .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة

ومنزل فى النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله « أولئك هم الوارثون » وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد « أولئك هم الوارثون » قال : « ما من عبد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فأما المؤمن فيبنى بيته الذى فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ويبنى بيته الذى فى النار » .

المؤمنون يرثون منازل الكفار

وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل ، بل أبلغ من هذا أيضاً ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجىء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » وفى لفظ لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقال هذا فكاكك من النار » فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فحلف له . قلت وهذه الآية كقوله تعالى « تلك الجنة التى نورث

من عبادنا من كان تقيا » وكقوله تعالى : «وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » .

وبعد هذه الجولة مع افتتاحية هذه السورة الكريمة لنواصل الحديث مع سورة الملك .

عالم الطير

قال الله تعالى « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير . أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور . أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور . أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم » .

فى هذا المشهد الربانى الكريم يوجه القرآن الكريم أنظار البشرية إلى عالم من العوالم الشتى الكثيرة المختلفة التى لها نظامها وآجالها وأرزاقها وأقدارها إنه عالم الطير « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » .

وتأمل معى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلم البشرية القناعة والرضا فى طلب الرزق فضرب لهم مثلا بعالم الطير « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » .

ومعنى قوله تعالى (صافات) أى صافات أجنحتها وهذه أكثر حالاتها ولذا عبر عنه بالصفة .

أما (يقبضن) فمعناه قبض الأجنحة فى بعض الحالات لا فى أكثرها . ولذا عبر عنه بالفعل الذى يفيد التجدد والحدوث وبين سر العظمة الإلهية فى هذا العالم العجيب فقال « ما يمسكهن إلا الرحمن » وفى الإمساك قدرة وفى التعبير بالرحمن رحمة فليس الإمساك هنا جبرا لها أو قهرا أو قسرة إنما هو رحمة فياضة لتقوم الطير برسالتها وجمع أرزاقها لأفراخها فى أعشاشها وتسبيح ربها « ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ».

وفى سورة النحل يقول تعالى عن هذا العالم « ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

اعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من الحقائق والأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير فقد نطق العلم مخبرا عن هذه الأسرار كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى يعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون إن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيرا عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن المقصد ، ويوضح جميل الصنع ، إذ يمتد من رأس كل طائر

جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلا من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها .

فالطيور الجارحة — كالبوم والحدأة — ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف وذلك لتمزيق اللحوم ، بينما الأوز والبط لهما مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد باتقان للبحث عن الحشرات والديدان التى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للانسان أن يعرف غذاء الطير من النظرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسنانا فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام .

ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام.

تأمل معى من الذى هيأ لعالم الطير هذا النظام وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة كما قال سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ».

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والاتقان الحكيم.

« قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ».

قال تعالى « أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ».

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها من الآيات أنه تعالى بعد ما بين آيات قدرته فى الأنفس والآفاق والكونيات، وهذا الكوكب الأرضى، وجه مولانا هذا السؤال إلى كل من استعان بغيره أو طلب المدد من سواه، فقال لهم فى أسلوب إنكارى بعد أمن التى تدل على الهمزة

والاستفهام ، وكأنه تعالى يقول : من هذا الذى هو جند لكم يوفر النصر ويرعى الأنفس والثمرات والأموال غير الله ، وعبر هنا بلفظ الرحمن لإفادة النعم والآلاء التى يغدقها بخالص رحمته وعميم فضله ، والجواب أنه لا أحد .

فمن الذى يستطيع أن يدعى أن بيده الملك وأنه قدير على كل شىء . من غير الله يستطيع ذلك .

بل من الذى يستطيع أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض وزين السماء بنجومها وجعل الأرض ذلولا ؟ هذه أدلة قاطعات يشاهدها من كان لديه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وحيث بطل هذا الادعاء فمن زعم ذلك فهو كافر خدعه كفره ، وضال ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة « إن الكافرون إلا فى غرور » وهذا أسلوب يفيد القصر فإن حرف (إن) هنا يفيد النفى أى ما الكافرون إلا فى غرور وخداع وغش « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » « قل من يكلأكم بالليل والنهار من الرحمن » « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » . « إن

ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

ثم يقول مولانا تبارك اسمه « أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور » .

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الذى يملك النصر وحده هو الذى يملك الرزق وحده فهو صاحب الآيات والآلاء آيات القدرة وآلاء الرحمة .

قوله تعالى « إن أمسك رزقه » لها معنيان فإما أن تكون (إن) نافية بمعنى ما أمسك رزقه أى ما حجب الرزق عنكم ليلا ولا نهاراً : سماء تفيض بالماء ، وأرض تفيض بالخيرات والنبات ، والمعنى الثانى أن تكون (إن) شرطية على إضمار جواب الشرط من ، باب الإيجاز ، والمعنى إن أمسك رزقه هلكتم .

(بل لجوا فى عتو ونفور) وهذا تعقيب على السؤال السابق أنهم يعلمون أن الله بيده مفاتيح الرزق .

(قل من يرزقكم من السماء والأرض قل الله) .

وقال جل شأنه « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » .

وقال سبحانه : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله » .

فقد أقروا بأنه هو الرازق إذن فلماذا انصرفوا ؟ لأنهم بغوا وتمادوا فى عتو وكبر ونفور ، وشرور وبطر للحق وغمط للمعايير .

ثم يقول تعالى بعد ذلك « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم » .

هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . والكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مكبا على وجهه ، أى يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدى « أمن يمشى سويا » أى منتصب القامة « على صراط مستقيم » أى على طريق واضح بين وهو فى نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة فالمؤمن يحشر يمشى سويا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » أزواجهم أشباههم .

قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا ابن نمير حدثنا إسماعيل عن نفيع قال سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس

على وجوههم فقال : أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادرا على أن يمشيهم على وجوههم ؟ وقد جاءت هذه الآية الكريمة نتيجة فاصلة بين أتباع الحق والسائرين وراء الباطل ، فمن أقر واعترف بآيات الله فى كونه وأن لهذا الكون إله واحد ، مشى سويا على صراط مستقيم ، ومن عمى وبطى فى باطله مشى مكبا على وجهه، قال تعالى : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً » .

قال سبحانه بعد ذلك « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . قل هو الذى ذراكم فى الأرض وإليه تحشرون » مازال النظم الكريم يواصل زحفه المبارك فى إسباغ النعم التى لا تعد ولا تحصى « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » .

وهذا أمر يخاطب الله به كل من يعقل الخطاب بقوله « قل » هو الذى أنشأكم بعدما كنتم فى عالم العدم« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » « وأخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .

فهذه آلات المعرفة ووسائل العلم : سمع وبصر وفؤاد مدرك ، وكان

الواجب أن نقابل هذه النعم بالشكر ، ولكن يا للأسف يعقب المولى على أحوال العباد بما هو واقع حالهم فيقول سبحانه « قليلا ما تشكرون » .

فاللهم إنا ندعوك بما دعاك به نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » كان يقول صلى الله عليه وسلم ذلك إذا أصبح ، فإذا أمسى كان يقول « اللهم ما أمسى بى من نعمة » الحديث وها نحن أولاء نعقب على هذه الآية الكريمة بما ذكره العلم ، والعلم يؤكد اليقين فى قدرة الله . ننقل على هذه الصفحات تلك الحقائق العلمية من كتاب « قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » للشيخ نديم الجسر مفتى طرابلس ولبنان الشمالى .

فى أسلوب رائع وحوار جميل يقول الشيخ نديم الجسر تحت عنوان

فى مساكن الجن

الشيخ : وهذا (السمع) يا حيران الذى كرر القرآن ذكره مع (البصر) فى آيات كثيرة حيث يقول « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا .

« وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

« الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل

نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

هذا السمع يا حيران ما هو حظ المصادفة فى بناء مغارته العجيبة الغريبة بأبوابها وصماخاتها وقواها وغشاواتها وغضاريفها وعظيماتها وكهوفها ومتاهاتها ومسالكها وطرقاتها وأعصابها ورباطاتها وجوامدها ومائعاتها وسلالمها وقنواتها ولوالبها وقوقعاتها وأكياسها وجراباتها وأحجارها وحصواتها . . . ؟

حيران : ما هى هذه المغارة العجيبة التى تكاد تشبه مغاور الجنيات فى قيعان البحار ، أو كهوف الشياطين فى متاهات القفار .

الشيخ : إنك لم تبعد يا حيران فى خيالك وسأجاريك فيه .

حيران : كيف ؟

الشيخ : سأصفها لك بلسان سكانها من الجن والشياطين فكثيرا ما يكون الخيال عونا على الإدراك والعقل فاسمع . قال شيطان من شياطين الشعر :

سألت (مجنأ) من عشيرة (الأنعام) أين مساكنكم ؟

قال : إننا نطير ونرقص بين السماء والأرض على متن الرياح والأمواج وإذا أردنا أن نستريح آوينا إلى آذان هذا (الإنسان) المضياف الطروب الذى يتلقانا تارة بالسرور وتارة بالدموع .

قلت : صف لى هذه المساكن كيف حالها ؟

قال : إنى أعجز عن وصفها فهى تكاد تشبه بدهاليزها وقاعاتها وسراديبها وأقنيتها ومنافذها وكواها مسكنا من مساكن جنيات البحر فى أعمق أغواره . . . وليس الخبر كالعيان .

قلت : هل لى أن أزورك مرة لأراها ؟

قال : حبا وكرامة ، ولكن تعال إلى بعد نصف الليل حين يستغرق صاحبى فى نومه فلا يشعر بك .

قال شيطان الشعر : وجئته فى الموعد فوقفت من (أذن) الرجل أمام (بوابة) عظيمة تحيط بمدخل ضيق لم أر فى البوابات مثيلا لها فى أقواسها وحنياتها وأطنافها وطياتها .

فقلت هذه أولى العجائب . . . وأخذت أتلفت لأرى صاحبى فوجدته واقفا عند المدخل الضيق يختبئ وراء شعيرات نابتات عند فمه فأشار إلى بالصمت ومشى أمامى فتبعته ودخلنا فى قناة بالنفق تذهب فى أولها صعدا ثم تنحدر عن نصفها وتضيق ، وفى أرضها دهن لزج أصفر ، ولما انتهينا إلى آخر النفق وجدنا أنفسنا أمام ستار صغير رقيق نصف شفاف كغشاء الطبل ولكنه مقعر . . . فلما دنوت منه همس صاحبى كالخائف قائلا لا سبيل لدخولك أنت من ها هنا . قلت وأنت ؟ قال : إنى أدخل كعادتى وأما أنت فترجع وتدخل من دهليز آخر . قلت كيف أرجع وحدى ؟ دعنى أشق هذا الغشاء شقا قليلا .

قال : إياك أن تفعل ، فإنك إن فعلت عطلت أذن الرجل وأغضبته وحرمتنى من دخول هذا المسكن إلى الأبد .

قلت : وأين المعبر الثانى ؟

قال : تخرج وتقف عند شفتى الرجل فإذا انفرجتا مرة عند غطيطه عبرت بلطفك المعهود إلى بلعومه وهنالك تجد قناة مكتوب عليها بوق استاكيوس وهى السبيل الوحيد الذى تتصل به الأذن بالهواء فتدخل أنت منها إلى القاعة التى وراء هذا الغشاء فترانى فى انتظارك قال شيطان الشعر ففعلت ما أشار به ودخلت إلى البلعوم وعبرت من تلك القناة صعداً فوجدت نفسى فى قاعة واسعة من العظم الرقيق وقد شد فى جدارها ذلك الغشاء الطبلى الذى منعنى من الدخول وفى الجدار المقابل له كرة بيضية الشكل مسدودة بغشاء وكوة مستديرة مسدودة بغشاء أيضاً وفى الجدار الخلفى ثقب كبير وثقوب صغار وبين هذه الجدران علقت سلسلة عظام عجيبة : أحدها على صورة « المطرقة » والثانى على شكل « سندان » الحداد والثالث على شكل « ركاب » السرج الأفرنجى وهى تتصل ببعضها : « فالمطرق » يتصل بالغشاء الطبلى ويدخل بين طبقتيه ويرتبط بهما ويشد الغشاء إلى داخل الغرفة فيجعله محدبا من الداخل ، مقعرا من الخارج « والركابى » يتصل بغشاء الكوة البيضية المقابلة . أما السندانى فهو متوسط بين الاثنين ويتصل بهما بمفاصل . فقلت لصاحبى : ما هذه العظام المغلفة ؟ قال : لا أدرى ولكنى أعلم

أننا إذا قرعنا « الغشاء الطبلى » ودخلنا تهتز اهتزازا خفيفاً . قلت وما السر فى كونها معلقة هكذا فى الهواء ؟ قال : لا أدرى ولكن أعلم أنه إن نقصت واحدة منها أو تعطلت مفاصلها ضعف السمع .

قلت : وما هذه الكوة المستديرة المغشاة ؟ وإلى أين تؤدى ؟

قال : إنها معبر ثان إلى أعصاب السمع .

قلت : وما وراء هاتين الكرتين ؟

قال : وراءهما القاعة الأخيرة التى نستقر بها فى نهاية مطافنا ، وهى أعظم القاعات وأعزها على صاحبها ، وفيها دهاليز وأقنية وسلالم كثيرة يتيه فيها السالك ولهذا يقال لها (التيه) .

قلت : من أين ندخل إليها .

قال : أنا أدخل من الكوة البيضية أو الكوة المستديرة وأما أنت فلا تستطيع الدخول منهما لأنهما مسدودتان بغشاءيها كما ترى .

قلت : ما العمل .

قال : لا أعرف لك حيلة فى هذه الساعة . . .

قلت : وقد ظهر فى وجهى أثر الغضب ، وهل من حيلة فى غير هذه الساعة ؟

قال : نعم ولكن هذا يحتاج إلى وقت وفرصة سانحة .

قلت : ما هى هذه الفرصة ؟

قال : نبحث عن إنسان شاعر له ولع بالموسيقى فنذهب أنت إليه وتلهمه أبياتا من الشعر لا تصلح إلا للغناء وأذهب أنا إليه فألقنه أنغاما لا تصلح إلا لهذه الأبيات . . . فإذا استهواه الشعر واستهواه النغم جمع بينهما فتقمصتنى وتقمصتك فصرت شيئاً منى واستطعت الدخول معى إلى حرم (التيه) العجيب . . .

قلت : إن الشاعر الذى أنا شيطانه من أكبر الشعراء ولكنه لا يحسن الغناء ، فهل تعرف بين هواتك أنت من ينظم الشعر . قال : لا يخلو البلد من مثل هذا ولكن الذى يتاح له أن يكون شاعراً موهوباً يأنف من أن يكون مغنياً . . .

قلت : وكيف عرفت ذلك ؟

قال : وقد أخفى بين فكيه ابتسامة ماكرة عرفته من صاحبى هذا الذى نحن فى أذنه فإنه يحسن الشعر ويجيد الغناء وإن كان يتستر فيهما عن الناس .

قلت : مالك إذاً تصعب علينا البحث والتنقيب ؟

قال : أخشى إن أيقظت الرجل أن يغضب .

قلت : لا عليك . أنا أنفث أبياتا من الشعر الباكى فى ثنايا أحلامه فإذا أفاق يرددها تراقصت أنت فى حلقه فغناها .

قال : ولماذا اخترت الشعر الباكى ؟

قلت : ألا تراه عجوزا يكاد يشرف على أرذل العمر ؟ لقد خبرت هؤلاء الشعراء وهم على عتبة القبر فلم أجدهم يستلهمون منى إلا شعر الشكوى والحنين إلى الصبا .

قال شيطان الشعر : وكان ما كان واستيقظ الرجل يردد الأبيات باكيا ، وما انقضت لحظة إلا وسمعناه يدندن بها ويسمعنا كلينا فى حلقه ويوحد بيننا شعرا ونغماً كما أردنا فانطلقنا متحدين ودخلنا ثانية من قناة البلعوم إلى حيث كنا فى قاعة الأذن الوسطى فقلت لصاحبى : من أية كوة ندخل الساعة إلى قاعة التيه ؟ قال إنهما مدخلان مستطرقان ولكن الأولى أن نركب متن هذه العظيمات المعلقة وندخل عبر اهتزازاتها من غشاء الكوة البيضية فهذا الطريق هو الطريق المفضل . وفعلنا فوجدنا أنفسنا فى دهليز بيضى الشكل على جدرانه حفر وثقوب وطاقات ثلاث دخلنا من إحداها فوجدنا أنفسنا فى (قنوات هلالية) الشكل منها قناتان فى وضع عمودى وقناة فى وضع أفقى ثم دخلنا من الدهليز إلى قاعة عجيبة لها شكل الحلزون فقلت لصاحبى إنك لم تبالغ حين وصفت مسكنك بأنه يشبه مساكن جنيات البحر . فما هذه القاعة التى تشبه القوقعة ؟

قال إنك لم تخطىء إنهم يسمونها القوقعة .

ثم سرنا فيها فإذا هى مؤلفة من محور مركزى كالعمود وقناة تدور حول العمود على هيئة لولب دورتين وزيادة وهذه القناة تقسمها صفيحة رقيقة بعضها عظمى وبعضها غشائى ، ثم تنتهى القناة بقية مسدودة هى رأس القوقعة . ومشينا فى أحد قسمى القناة اللولبية المستطرق إلى الدهليز حتى وصلنا إلى رأس القوقعة . ومشينا فى أحد قسمى القناة اللولبية المستطرق إلى الدهليز حتى وصلنا إلى رأس القوقعة فوجدنا القسم الذى نحن فيه يستطرق إلى القسم الثانى من فتحة بينهما عند رأس القوقعة ، فنزلنا منها إلى القسم الثانى من القناة فأدى بنا إلى الكوة المستديرة التى سبق ذكرها . قلت لصاحبى ها قد انتهينا إلى حيث بدأنا .

قال نعم هذان سلمان فى داخـــل القناة اللولبية أحدهما يسمى الســـلم الدهليزى لأنه يستطرق إلى الدهليز ، والثانى يسمى السلم الطبلى لأنه يستطرق إلى غرفة الطبلة من الكوة المستديرة وكلا السلمين يستطرق للآخر عند قبة القوقعة كما رأيت . أما الصفيحة التى رأيت أنهما تقسمهما فتسمى الصفيحة اللولبية ونصفها العظمى يبدأ من الدهليز وهو يفرز سائلا صافيا يسمونه (اللمفا الظاهرة) ونصفها الغشائى عبارة عن زق غشائى مسدود يحتوى على سائل أيضاً يسمونه (اللمفا الباطنة) وهذا الزق مؤلف فى أوله من زقين يقال لأحدهما (الجراب) وللآخر (الكيس) والجراب يستطرق إلى القنوات الهلالية وفيه

جحران صغيران من كربونات الكلسى المتبلور يقال لهما (الحجران الأذنيان) .

قال شيطان الشعر : وأراد صاحبى أن يسترسل فى الوصف فقلت له كفى كفى فقد احتقن والله رأسى وزاغ بصرى وتاه عقلى فى هذا المكان الذين حق لهم أن يطلقوا عليه اسم (التيه) . ولكن قل لى بكلمة مختصرة ما هذه الحبال والخيوط الدقيقة المنتشرة فى كل مكان والداخلة فى كل ثقب ، والسابحة فى كل قناة وقوقعة ، والغائصة فى كل سائل ؟

قال هذه بعضها شرايين وأوردة ، والدقيق منها الغائص فى القنوات والقوقعة والسوائل أعصاب السمع التى تذهب إلى الدماغ وتنقل الصوت إلى الرجل . قلت ولم كل هذه العظيمات والدهاليز والأقنية والاوالب والقواقع والسلالم والأغشية والصفائح والكوى والثقوب والسوائل والأحجار وغيرها ؟

أما كان يكفى أن يقف عصب السمع عند الطبلة فيتلقى هزة الصوت وينقلها لدماغ الرجل ؟ قال : لا أدرى من أسرارها الخفية شيئاً سوى أنه إذا اختل أحدها أو انسد أو تلف اختل سمع الرجل أو تعطل فأصبح لا يهش لنا ولا يبش أبدا .

قال شيطان الشعر : فبادرت بالخروج من حيث دخلنا من قناة (أوستاكيوس) فودعته شاكرا وأنا أقول له حقا لقد كنا فى مسكن من مساكن الجن .

حيران : ولكن ما الحكمة فى خلق هذا الجهاز المعقد العجيب ؟

الشيخ : باختصار أقول لك إنه لولا هذه الترتيبات المحكمة التى تسير من البوابة الخارجية التى تسمى (الصيوان) إلى (الصماخ السمعى) إلى (الغشاء الطبلى) إلى (الأذن المتوسطة) إلى (الأذن الباطنة) وتنتهى عند أعصاب السمع لما أمكن وصول الأصوات إلى الدماغ بشكل محتمل أو مفهوم أبدا ، فكل هذه الغضاريف المعرجة والدهاليز المعوجة والقاعات المتداخلة والأقنية المتواصلة والغشاءات المشدودة والكوى المسدودة والعظيمات المعلقة والصفائح المطرقة والسلالم النازلة الصاعدة والمياه السائلة الراكدة والأكياس الرقيقة والأحجار الدقيقة إنما خلقت وأحكمت لأجل ترقية توزيع الاهتزازات الصوتية على وجه يضعف قوتها ويقوى ضعيفها ليتقى الجهاز السمعى كل رجة وصدمة ويشعر الإحساس بألطف نغمة وأضعف نأمه .

حيران : إننى مؤمن بأن هذا الجهاز لم يخلق عبثا ومدرك لفائدة بعض أجزائه ولكنى أسأل مولاى الشيخ عن الحكمة فى خلق هذه الترتيبات المعقدة من العظيمات والصفائح والكوى والمنافذ والمياه والقواقع والقنوات والسلالم .

الشيخ : سل عنها (المصادفة) التى خلقت هذا الجهاز العجيب .

حيران : أعوذ بالله من الضلال المبين .

الشيخ : إذا كنت لا تؤمن بالمصادفة فاسأل خلايا المضغة التى صنعت الأذن فإنها على ما يظهر عاقلة ومدركة وحكيمة وعالمة بطبائع الأشياء وخواصها والنواميس وأسرارها .

إنها علمت أن الأصوات تأتى إلينا بتموجات الهواء وأن هذه التموجات منها الشديد ومنها الضعيف ومنها ما يقع عموديا ومنها ما يأتى جانبياً فخلقت (صيوان الأذن) وجعلته غضروفيا بين العظم واللحم وجعلت فيه طيات وليات ليتلقى أمواج الصوت ويعكسها من طيه إلى ليه ويوصلها إلى الصماخ .

وعلمت أن الرياح التى تحمل الصوت قد تكون عنيفة وقد تحمل معها المؤذيات من غبار وتراب وحشرات فجعلت (الصماخ) معوجا متقوسا نحو الأعلى وجعلت فى فمه سياجا من الشعر وفى باطنه دبقا أصفر شمعيا ليتقى بعوجه صدمة الرياح وبسياجه ودبقه المؤذيات فلا تصل إلى غشاء الطبلة الرقيق الواهن .

وعلمت أن بعض الأصوات تكون وجسا أو همسا فجعلت من الصماخ بشكله الكهفى المملوء بالهواء وسيلة لتقوية الصوت ومضاعفته بالتصدية على النحو الذى نسمعه فى الحمامات والكهوف من ضجة الصوت الضعيف برجع الصدى .

وعلمت أن الغشاء المتوتر كالطبل هو أفضل الأجسام الصلبة فى

إيصال الصوت فخلقت غشاء الطبلة وغشاء الكوة البيضية والأغشية الأخرى فى الأذن الداخلية .

وعلمت أنه إذا تثبت جسم صلب صغير فى طرف غشاء مشدود متوتر أوصل الاهتزازات الصوتية على وجه أفضل فخلقت سلسلة العظيمات الثلاث وربطها بين غشاء الطبلة وغشاء الكوة البيضية.

وعلمت أن كل جسم صلب محاط بوسط مختلف عنه فى الجوهر يرسل الاهتزازات فى جوهره بأشد مما يرسلها فى الوسط المحيط به ، فجعلت العظيمات الثلاث معلقة فى الهواء يحيط بها ويفصلها عن عظام الرأس ، وفعلت مثل ذلك فى الصفيحة اللولبية فأحاطها بسائل مختلف عنها فى الجوهر كى لا تنتقل الاهتزازات السارية فى العظيمات والصفيحة اللولبية إلى عظام الخوذة وتتبدد فيها .

وعلمت أن سلسلة العظيمات قد تصاب بما يعطل عملها فى نقل الصوت من غشاء الطبلة إلى غشاء الكوة البيضية فخلقت (الكوة المستديرة) وغطاها بغشاء يساعد على إيصال الصوت إلى الأذن الداخلية وجعلت لكل كوة من الكوتين طريقا سلما فى داخل القوقعة .

وعلمت أن الشكل الحلزونى اللولبى هو الشكل الأصلح لانتشار الألياف العصبية السمعية على مساحة متسعة ضمن جسم صغير فى حيز ضيق ، فخلقت القوقعة وجعلت فيها القناة اللولبية سلمين مستطرقين

يصعد أحدهما الدهليزى من الكوة البيضية وينزل ثانيهما الطبلى إلى الكوة المستديرة . وجعلت فى القناة اللولبية هذه الصفيحة اللولبية العظمية الغشائية التى تفرز سائل اللمفا .

وعلمت أن بعض الأصوات تأتى من الحوذة فخلقت القنوات الهلالية لتساعد على جمع التموجات الصوتية الآتية من الحوذة وتوجه سير الأصوات بحسب اتجاه تجاويفها المنحنية وتوصلها إلى أعصاب السمع المنتشرة فى سوائلها وسوائل القوقعة ، وخلقت الزقين الغشائيين المملوئين باللمفا وجعلت فى أحدهما الحجرين الأذنيين المتبلورين ليزيدا بصداهما شدة الهزات الصوتية .

وعلمت فوق ذلك تلك الخلايا العاقلة المدركة يا حيران أن للهواء ضغطا خارجيا عنيفا طاغيا يؤذى غشاء الطبلة إن لم يقابل من داخل الأذن الوسطى بهواء يعادله ويقاومه ويحفظ الموازنة فى ضغط الهواء وحرارته ، كما تعلم ذلك من نفسك إذا حصل لك زفير أو شهيق غائر طويل ، وكان الأنف والفم مسدودين فيتوتر الغشاء الطبلى ويتحدب نحو الخارج عند الزفير ونحو الباطن عند الشهيق ، فيتشوش السمع ، فخلقت بوق (استاكيوس) وأدخلت منه الهواء إلى الأذن الوسطى وجعلت من هذا البوق فى الوقت نفسه موضحا للأصوات ، كما توضح ثقوب الآلة الموسيقية أصواتها وجعلته منفذا للمخاط الذى يفرز من باطن الطبلة . أليست مدركة عاقلة حكيمة عليمة قديرة يا حيران تلك الخلايا

حتى استطاعت أن تعرف كل هذه الأسرار والطبائع والنواميس التى عرفها العلماء اليوم بعد أن مضى على خلق الإنسان حين من الدهر فخلقت جهاز الأذن المعقد على مقتضى هذه الأسرار ؟

حيران : سبحان الخلاق العظيم العليم الحكيم القدير . . . سبحانه .

الشيخ : سبحانه وتعالى يا حيران وتبا للغافلين الذين « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

صدق الله العظيم . . .

قوله تعالى « هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون » .

(ذرأكم) بمعنى كثركم ونشركم ، وإليه تحشرون بمعنى المصير والمآل إليه وحده لا شريك له ، وتلك قضية العقيدة التى لا شك فيها ولا ريب . ثم قال تعالى بعد ذلك « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

والمقصود بالوعد هنا اليوم الموعود وهو يوم القيامة ومتى اسم استفهام يراد به على لسانهم الاستبعاد والاستحالة والتحدى بدليل قولهم بعد ذلك (إن كنتم صادقين) .

قال تعالى : « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » .

وقال جل شأنه « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا

خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شئ قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » .

قوله تعالى « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون » .

أى لما قامت القيامة وشاهدها الكفار رأوا أن الأمر كان قريباً لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ « هذا الذى كنتم به تدعون » .

أى تستعجلون .

« قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم . قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » .

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه (أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا . فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) .

أى خلصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم . ثم قال تعالى (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) .

أى آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم وعليه توكلنا فى جميع أمورنا كما قال تعالى :

(فاعبده وتوكل عليه) .

ولهذا قال تعالى (فستعلمون من هو فى ضلال مبين) أى منا ومنكم ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى إظهارا للرحمة فى خلقه :

(قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً) .

أى ذاهبا فى الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابع ولهذا قال تعالى :

(فمن يأتيكم بماء معين) .

أى نابع سائح جار على وجه الأرض ، أى لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة .

فلله الحمد والمنة .

وهكذا قضينا هذه السياحة المباركة فى سورة الملك التى تسمى المنجية والتى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : تبارك الذى بيده الملك . رواه أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضرب بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خباءة على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم هى المانعة ، هى المنجية تنجيه من عذاب القبر . رواه الترمذى ٥

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وددت أنها فى قلب كل مؤمن (يعنى تبارك الذى بيده الملك) » .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال يؤتى الرجل فى قبره فتؤتى رجلاه فتقول : ليس لكم على ما قبلى سبيل كان يقرأ سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل صدره أوقال بطنه فيقول ليس لكم على ما قبلى سبيل كان يقرأ فى سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول ليس لكم على ما قبلى سبيل كان يقرأ فى سورة الملك ، فهى المانعة تمنع عذاب القبر ، وهى فى التوراة سورة الملك من قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب ، أى جلب الحسنات الكثيرة وأحسن وأصاب .

المؤلف

عبد الحميد كشك

حينما بدانا نشر هذه السلسلة من كتب فضيلة الشيخ كشك غفلنا عن ذكر تسلسل حياته .. لانه غنى عن التعريف .. ولكن استجابة لرسائل القراء التى تصلنا من مختلف انحاء العالم الاسلامى والتى تطالبنا بمعرفة حياة الداعية الكبير نقدم لهم حياة المؤلف فى سطور :

- عبد الحميد عبد العزيز محمد كشك .
- من مواليد بلدة شبراخيت محافظة البحيرة عام ١٩٣٣ .
- التحق بجمعية تحفيظ القرآن الكريم ، حيث اتم حفظه القرآن وهو فى الثانية عشرة من عمره .
- التحق بالقسم الابتدائى بمعهد الاسكندرية الدينى .
- وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية ، انعم الله عليه بفقد البصر ، فواصل الطريق فى طلب العلم بجد ومثابرة ، بعد ما قضى حولين من عمره يطلب العلاج ، ولكنه حمد الله على قدره ، فان الله يعوض عن نور البصر ذكاء البصيرة .
- التحق بمعهد القاهرة الثانوى ، وكان الاول على فرقته دائما ، وحصل على مجموع مائة فى المائة عندما انتقل من الثالثة الى الرابعة فى القسم الثانوى ، وفى الشهادة الثانوية حصل على مجموع ٩٨٪ .
- التحق بكلية اصول الدين ، حيث حصل على الشهادة العالمية، وكان ترتيبه الأول ، ومثل الازهر الشريف فى عيد العلم عام ١٩٦١ .
- حصل على شهادة العالمية مع تخصص التدريس العالى .
- عمل اماما وخطيبا بمساجد وزارة الأوقاف .
- خطيب وامام مسجد عين الحياة (الملك سابقا) منذ عام ١٩٦٤

والآن يوجه دعوته على منبر مسجد عين الحياة بشارع مصر والسودان بالقاهرة .

الناشر

فهـــرس

صفحة

مقـــدمة ٥
سورة تبارك وفضل قراءتها ٧
الجزاء يوم البعث ٩
نـــور الوعـــد ١١
خسف الأرض آية من آيات الله ٢٧
هل يمكن التنبؤ بالزلازل ؟ ٣٣
مســـألة فى العقيدة ٣٧
حقيقـــة الايمـــان ٤٢
تحـــريم الاســـتمناء ٤٨
المؤمنون يرثون منازل الكفار ٥٠
عـــالم الطـــير ٥١
فى مساكن الجن ٥٩
ترجمة الشيخ كشك ٧٧

رقم الايداع ١٩٨١/٢٤٨٣

الترقيم الدولى ٢ـ٣٥ـ٧٣٢٣ـ٩٧٧ ISBN